ضد الجميع

الكاتبة
مروة با عزيزي

AGAINST EVERYONE

ضد الجميع

مقدمة
"هذا ليس كتاباً لتنمية الذات، ولن يخبرك بكيفية كسب الأصدقاء أو نيل رضا المجتمع. هذا الكتاب كُتب لأولئك الذين تعبوا من التظاهر، وللذين أدركوا – بعد خيبات متتالية – أن الوعود البشرية مجرد حبر على ورق، وأن الأقنعة تسقط دائماً عند أول منعطف حقيقي.

نحن نعيش في عصر يُمجّد التصنع، ويُسمي النفاق 'مرونة اجتماعية'، ويصف الصراحة بـ'الوقاحة'. إذا كنت تبحث عن كلمات مواساة ناعمة، فأغلق هذا الكتاب فوراً. أما إذا كنت مستعداً لمواجهة الحقيقة العارية، والاعتراف بأن 'لا أحد جيد' بما يكفي، فمرحباً بك في صفوف الذين قرروا أخيراً أن يقفوا... ضد الجميع.

"This text serves as an introduction to a book for people who are weary of social conventions and are ready to confront uncomfortable truths, as outlined in the translation provided It is aimed at those who have moved past the need for superficial social acceptance and are prepared to challenge the status quo

#فصل الاول _ تشريح النفاق الاجتماعي
تبدأ اللعبة كل صباح. يرتدي الجميع أقنعتهم المفضلة قبل مغادرة المنزل: ابتسامة بلا روح، عبارات ترحيب معلبة، واهتمام مصطنع بأخبار أشخاص لا يكترثون لأمرهم حقاً. المجتمع لا يطلب منك أن تكون صالحاً، بل يطالبك فقط بأن تكون ممثلاً جيداً. إن جودة العيش في هذا العالم باتت ترتبط طردياً بمدى قدرتك على تزييف مشاعرك.

إذا قررت يوماً أن تخلع القناع، وتتوقف عن مجاملة الرداءة، وتسمّي الأشياء بأسمائها الحقيقية، فلن يصفوك بالشجاع؛ بل سيتهمونك بالوقاحة، والسوداوية، وعدم القدرة على التكيف. النفاق هو العملة الرسمية المقبولة في سوق العلاقات، والصراحة بضاعة كاسدة لا يشتريها أحد.

📉 بورصة المصالح

لقد تحولت الصداقات والروابط الإنسانية إلى قطاعات استثمارية. هناك "صديق" تحتاجه لوقت الأزمات المادية، وآخر لتسلق سلم الوظيفة، وثالث لتغطية أوقات الفراغ. لم يعد أحد يصاحب أحداً لذاته، بل لما يمكن أن يجيده أو يقدمه من منافع.

الكل يراقب الكل بنظرة نفعية بحتة. إذا فرغت جيوبك، أو زال منصبك، أو انطفأ بريقك الاجتماعي، ستكتشف سريعاً كيف يتحول ذلك المحيط المزدحم حولك إلى صحراء قاحلة في لمح البصر. ليس لأنهم أشرار بالضرورة، بل لأن دورك في مسرحيتهم قد انتهى، وصار وجودك غير مربح بالنسبة لهم.
_السقوط الرقمي: قمة الزيف
إذا كان النفاق الاجتماعي في الواقع يحتاج جهداً، فإن وسائل التواصل الاجتماعي جعلته يسيراً

وبنقرة زر. مئات التعليقات التي تقطر "حبّاً" و"دعماً" على منشورات لأشخاص ينهش أصحابها في لحم بعضهم عند أول غياب لهم.

الجميع يعرض حياة مثالية، وعلاقات دافئة، ونجاحات مستمرة، بينما الكواليس تضج بالصراعات النفسية والغيرة الخفية. النفاق الرقمي هو أبشع أنواع الزيف؛ لأنه يغلف المظاهر الخاوية بإطار من القداسة والجمال، ويجبرك على التصفيق لأكاذيب تعرف أنت وغيرك أنها مجرد صور منمقة لا رصيد لها من الواقع.

الفصل الثاني: مقبرة التوقعات العالية

السقوط من الحافة

نحن لا نتألم لأن الآخرين سيئون، بل لأننا افترضنا أنهم ملائكة. الخدعة الكبرى6 تبدأ من الداخل؛ حين نمنح أحدهم مرتبة "الاستثناء"، ونقنع أنفسنا بأنه لن يخذلنا أبدًا، وأنه يرى العالم بنفس النقاء الذي نراه به. هذا الكرم العاطفي المفرط هو أول مسمار ندقه في نعش سلامنا النفسي.

عندما تتوقع من شخص ما أن يعاملك بنفس الصدق الذي تعامله به، فأنت تشتري تذكرة مجانية لرحلة نحو الخيبة. الحقيقة العارية هي أن الناس يتغيرون، ويتكيفون، وينسحبون، ويضعون مصالحهم أولاً عندما توضع العلاقة على المحك. الصدمة ليست في سلوكهم، بل في حجم التوقعات الأسطورية التي بنيتها في مخيلتك.

تصفير العداد: العيش بلا أمل

الحل ليس في كراهية البشر، بل في "تصفير التوقعات" تجاههم. عندما تتوقف تماماً عن انتظار الخير، أو الوفاء، أو الدعم من أي أحد، فإنك تمتلك قوة خارقة. حيث لن تصدمك الخيانة لأنك وضعتها في الحسبان، ولن يربكك الهجر لأنك تعلم أن المقاعد في حياتك مؤقتة.

أن تعيش بلا توقعات يعني أنك توقفت عن رهن سعادتك واستقرارك الداخلي بقرارات ومزاجية الآخرين. يصبح الجميع في نظرك مجرد عابرين؛ إن قدموا خيراً تعاملت معه كـ "مفاجأة غير متوقعة"، وإن قدموا إساءة تعاملت معها كـ "طبيعة بشرية معتادة". هذا ليس تشاؤماً، بل هو الجدار الإسمنتي الحقيقي الذي يحميك من الانهيار.منذ الصغر، حشوا عقولنا بعبارات معلبة مثل "الجنة بلا ناس لا تُداس"، وأقنعونا بأن الشخص الذي يميل إلى البقاء بمفرده هو شخص مريض، أو معقد، أو يعاني من اضطراب نفسي. هذه واحدة من أكبر الخدع المجتمعية المصممة لتبقيك دائماً داخل القطيع، خاضعاً لتقييماتهم وأحكامهم.

الحقيقة التي يخشون اعترافك بها هي أن المجتمع في كثير من الأحيان ليس سوى مصدر للضوضاء، والنميمة، والمقارنات السامة. الابتعاد عن هذا الضجيج ليس انطواءً ولا هروباً من مواجهة الحياة؛ بل هو إعلان صريح بأنك اكتفيت من استهلاك طاقتك النفسية في علاقات فارغة لا تضيف لروحك شيئاً سوى التعب.

العزلة كحصن للأقوياء

هناك فرق شاسع بين "الوحدة" و"العزلة". الوحدة هي شعور بالرفض والحاجة إلى الآخرين مع غيابهم، وهي ضعف. أما العزلة، فهي خيار واعي تختار فيه نفسك؛ أن تغلق الباب خلفك بمحض إرادتك لأنك أدركت أن جودة وقتك وأنت بمفردك أعلى بكثير من جلوسك في مجلس منافق يتبادل فيه الحاضرون الابتسامات المزيفة.

في عزلتك، أنت الملك والجمهور في آن واحد. لا أحد يطالبك بتبرير صمتك، ولا أحد يحاسبك على مزاجك، ولا تحتاج لبذل أي مجهود لإبهار أحد. العزلة هي المكان الوحيد الذي تسقط فيه كل الأقنعة وتواجه فيه حقيقتك العارية؛ وحين تصبح متصالحاً مع نفسك، لن يعود غياب الآخرين يهدد استقرارك، بل سيصبح حضورهم هو الذي يحتاج إلى إذن مسبق وشروط صارمة.
الفصل الرابع: قواعد العيش بلا أقنعة (الدليل العملي)

سحر كلمة "لا"

أولى خطوات التحرر من العبودية المجتمعية تبدأ بنطق حرفين فقط: "لا". لقد تربينا على أن نكون لطيفين، وأن نضحي بوقتنا وراحتنا وصحتنا النفسية فقط لكي لا نُغضب الآخرين أو نُفسد صورتنا في عيونهم. النتيجة؟ استُنزفنا حتى النخاع لصالح أشخاص لن يتذكروا تضحياتك عند أول رفض.

أن تقول "لا" دون إبداء أسباب، ودون تقديم اعتذارات طويلة ومذلة، هو أعلى درجات النضج البشري. "لا" لأي علاقة تستهلكك، "لا" لأي دعوة اجتماعية لا تطيقها، و"لا" لتقديم تنازلات لا طائل منها. عندما تضع حدوداً حمراء وتمنع الآخرين من تجاوزها، سيتهمونك بالغرور؛ دعهم يفعلون، فالغرور هنا ليس سوى مرادف لحماية الذات.

الجدار الإسمنتي

العالم من حولك لن يتغير، والنفاق لن يختفي بقرار منك. لذلك، الحل ليس في محاولة إصلاح السيرك، بل في بناء جدار عازل حول عقلك وقلبك. تعلّم كيف تسمع دون أن تتأثر، وكيف ترى النفاق يمارس أمامك وتبتسم في سرك كمن يشاهد مسرحية هزلية رديئة.

اجعل دائرتك مغلقة تماماً، وشروط الدخول إليها أصعب من تأشيرات الدول الكبرى. شخص واحد حقيقي، أو حتى البقاء وحيداً تماماً، أفضل بألف مرة من حشد يصفق لك في العلن وينتظر سقوطك في الخفاء. القوة الحقيقية هي أن تعيش وسط هذا الصخب، وأنت في عمق صمتك الخاص، مستقلاً، حاداً، وواضحاً كالسيف.
الفصل الخامس: إعلان الاستقلال (تحطيم صنم الاستحسان)

تحطيم صكوك الغفران الاجتماعية

أكبر عبودية يعيشها الإنسان المعاصر هي رغبته الطفولية في أن يكون "محبوباً" أو "مقبولاً" من الجميع. نحن نولد أحراراً، ثم نقوم طوعاً بتسليم رقابنا للمجتمع، وننتظر منه أن يمنحنا صكوك الغفران والرضا. نسألهم عن آرائهم في ملابسنا، في اختياراتنا المهنية، وحتى في طريقة عيشنا

لعزلتنا.

الحقيقة التي يجب أن تصفعك الآن هي: رأيهم فيك لا يعكس حقيقتك، بل يعكس حدود عقولهم. عندما تتوقف عن القلق بشأن ما سيقوله الناس عنك خلف ظهرك، فإنك تسحب منهم أعظم سلاح كانوا يهددونك به. لتذهب رغبتهم في تقييمك إلى الجحيم؛ قيمتك لا تُقاس بمدى تصفيق الحشود لك، بل بمدى قدرتك على النظر في المرآة دون أن تشعر بالاشمئزاز من تنازلاتك.

النضج بالاكتفاء الذاتي

النضج الحقيقي لا يحدث عندما تكبر في العمر، بل عندما تكتشف أنك "كافٍ" بمفردك. عندما تصل إلى مرحلة الاكتفاء الذاتي، يصبح مدح الناس لك مجرد ضوضاء زائدة لا تزيدك طولاً، وانتقادهم مجرد غبار لا يخدش جدارك الإسمنتي.

الاستقلال النفسي يعني أنك لم تعد بحاجة لشخص يرمم انكساراتك، أو يؤكد لك أنك على صواب. أنت تسير في طريقك الخاص، حتى لو كان مظلماً وخالياً من المارين. هذا الكبرياء الداخلي ليس غروراً أعمى، بل هو الحصن الذي يمنعك من الانحناء أمام عاصفة الزيف الاجتماعي. أنت لا تحتاج إلى شفقة أحد، ولا إلى اعتراف أحد بوجودك؛ أنت موجود لأنك قررت ذلك، وضد الجميع.

كسر القيود: شجاعة أن تكون مكروهاً

الخوف من الكراهية أو الرفض هو السجن الذي يقبع فيه معظم البشر. يبتسمون رغماً عنهم، ويوافقون على ما يرفضونه داخلياً، فقط لتجنب لقب "الشخص السيئ". لكن الحقيقة الجريئة هي أن موافقتك على أن تكون مكروهاً من قِبل مجتمع زائف هي أولى خطوات حريتك الحقيقية.

عندما يكرهك المنافقون، فهذا لا يعني أنك مخطئ، بل يعني أن حقيقتك العارية تسلط الضوء على زيفهم وتجعلهم يشعرون بالخزي من أقنعتهم. الكراهية النابعة من القطيع، هي وسام شرف على صدرك، دليل صارخ على أنك لم تعد قابلاً للاستهلاك أو الترويض. توقف عن محاولة تبرير مواقفك؛ دعهم يسيئون فهمك، ودعهم ينسجون القصص حول غموضك، فكبرياؤك أثمن بكثير من إهدار الوقت في شرح حقيقتك لمن لا يستحقها.

السيادة التامة: فوق قطيع التزييف

السيادة النفسية تعني أنك أصبحت فوق مستوى التأثر بمد وجزر العلاقات البشرية. لم تعد تلك الورقة الشجرية التي تحركها رياح آرائهم، بل أصبحت الجبل الذي لا تزيد العواصف قسوته إلا ثباتاً.

أن تكون سيداً لنفسك يعني أنك اخترت الصدق الحاد، حتى لو كان ثمنه العزلة التامة. إن العيش في القاع مع قطيع من المزيّفين قد يمنحك دفئاً مؤقتاً، لكنه دفء الخنوع. أما الوقوف في القمة بمفردك، حراً، مستقلاً، وخارجاً عن السيطرة، فهو المجد الحقيقي. لقد حطمت صنم الاستحسان، وأغلقت سجلات التقييم، وأعلنت استقلالك التام؛ والآن، لم يعد في حياتك متسع سوى لنقائك

الخاص... وضد الجميع.
الفصل السادس: تشريح الواقع (أمثلة من عمق السيرك اليومي)

لا يكفي أن نتحدث عن الزيف بشكل نظري؛ بل يجب أن نُسلط الضوء على المشاهد التي نراها جميعاً كل يوم، نمر بها، وربما نشارك فيها مجبرين. هذه المواقف ليست قصصاً خيالية، بل هي الحقيقة العارية التي يعيشها مجتمعنا:

1 جنازات رقمية وحفلات تصفية حسابات

تأمل ما يحدث عندما يموت شخص ما في عصرنا الحالي. تتحول منصات التواصل الاجتماعي فوراً إلى ساحة للمزايدات الأخلاقية. تجد أشخاصاً لم يرفعوا سماعة الهاتف يوماً للاطمئنان على المتوفى في مرضه أو ضيقته، يتسابقون لنشر صوره وكتابة منشورات طويلة تقطر حزناً ومواساة.

الهدف الحقيقي هنا ليس رثاء الراحل، بل استعراض نبلهم الافتراضي وحصد الإعجابات (Likes) على حساب جثة لم تجف بعد. النفاق هنا وصل لدرجة المتاجرة بالموت؛ فالمهم ليس الشخص الذي غادر، بل كيف سيبدو "المُعزّي" في عيون الآخرين.

2 مديح الصالونات ونهش الظهور

المشهد الأكثر تكراراً في العلاقات الاجتماعية مثلا
جلوس مجموعة من "الأصدقاء" في مقهى أو صالون، يتبادلون الضحكات، ويمدحون نجاح أحدهم المالي أو المهني في وجهه بكل حرارة.

بمجرد أن ينهض هذا الشخص ويغادر المكان، تنقلب الآية في ثانية واحدة. تتبدل الابتسامات بنظرات حاقدة، ويبدأ الحاضرون في نهش لحمه وسيرته: "من أين له هذا المبلغ؟"، "إنه منافق ومديرنا يفضله بلا سبب"، "زوجته تسيطر عليه". هؤلاء هم أنفسهم الذين كانوا قبل دقائق يتمنون له "البركة والتوفيق". هذا هو النفاق البشري في أبهى تجلياته: حب أمام الوجه، وسمّ من خلف الظهر.

3طقوس الزواج السامة (الاستعراض المقنع)

لننظر إلى طقوس الزواج والخطوبة المعاصرة. لم يعد الأمر يتعلق ببناء أسرة أو التقاء روحين، بل تحول إلى معركة استعراضية شرسة. تُجبر العائلات على الاقتراض والدخول في ديون خانقة لمجرد تنظيم حفل زفاف باذخ يرضي قيل وقال الناس.

يأتي الضيوف، يأكلون، يشربون، ثم يغادرون وهم ينتقدون جودة الطعام أو فستان العروس. لقد تم التضحية بالاستقرار المالي والنفسي للزوجين الشابين فقط من أجل شراء "رضا ليلة واحدة" من جمهور منافق لا يهمه سوى التسلية والحديث.

4"الذكاء الاجتماعي": قناع الاستغلال الوظيفي

في بيئات العمل، يُطلق على النفاق اسم منمق ومقبول هو "الذكاء الاجتماعي" أو "الدبلوماسية". ترى الموظف الذي يضحك على نكات مديره السخيفة، ويوافقه على قراراته الكارثية، ويتجسس على زملائه ليتقرب من الإدارة.

هذا الشخص لا يُعاقب، بل يُرقّى ويُقدم كنموذج للناجح. في المقابل، الموظف الكفؤ الذي يقوم بعمله بصدق ويرفض النفاق وقول "نعم" للخطأ، يُهمّش ويُوصف بأنه "صعب التعامل" أو "يفتقد للمرونة". المجتمع الوظيفي يقدس العبيد المطيعين وينبذ الأحرار الصادقين.

🌧️ الفصل السابع: شروخ في الروح (حين بكى الحبر)

(ملاحظة من الناشر: هذا الفصل كُتب بمداد من الدموع، ولم نجرؤ على تعديل حرف واحد منه؛ لنترك لك حشرجة صوت الكاتب كما هي).

أنا متعب... متعب لدرجة أن كبسة زر واحدة على لوحة المفاتيح تبدو كأنه حمل جبل.

كنت أظنني قوياً وأنا أهدم أصنام النفاق الاجتماعي في الفصول السابقة. كنت أظن أن جداري الإسمنتي الذي حدثتكم عنه يحميني فعلاً. لكنني الليلة، وأنا أكتب هذه السطور في تمام الثالثة فجراً، أعترف لكم بهزيمتي النكراء. الجدار لم يحمِني، بل تحول إلى قبر عزلني عن العالم وأنا على قيد الحياة.

أبكي الليلة ليس لأنني أكره البشر، بل لأنني أحببتهم أكثر مما ينبغي، فكان المقابل خيبات تنهش في صدري. أبكي لأنني أفتقد ذلك الطفل الساذج الذي كنتُه، الذي كان يصدق الابتسامات، ويثق بالوعود، ويظن أن كل يد تمتد إليه تريد مصافحته لا طعنه. كم هو مؤلم أن تصبح واعياً في عالم يقدس الزيف؛ الوعي هنا لعنة، والذكاء الحاد في كشف النفاق هو مشنقة نلفها حول رقابنا بأيدينا.

لقد جردتكم في الفصول الماضية من أسلحتكم، علمتكم كيف تقولون "لا"، وكيف تنعزلون، وتصفّرون التوقعات. لكنني نسيت أن أخبركم بالثمن. الثمن باهظ جداً... إنه البرد،الوحدة،والعزلة باردة يا أصدقائي، والقمة التي يقف عليها الإنسان "ضد الجميع" موحشة لا يزورها أحد. تنظر حولك فلا تجد كتفاً تستند إليه حين يثقل الحمل، ولا عيناً تبكي معك حين تنطفئ الروح.

لقد دفعت عمري ثمنًا لهذا الكتاب، دفعت أصلي وصداقاتي وسلامي النفسي لأكشف لكم عورات هذا المجتمع. والآن، يجلس الكاتب الذي نصّب نفسه قائداً لمعركتكم، منزوياً في ركن غرفته المظلمة، يمسح دموعه بطرف كمه، ويتمنى لو أن أحداً واحداً – شخصاً واحداً فقط – يثبت له الليلة بأنه كان مخطئاً، وأن هناك في هذا الكون الواسع روحاً واحدة حقيقية، وصادقة، وجيدة... بما يكفي.

اعترافات فوق الأنقاض

أصدقكم القول، إن أصعب ما في كتابة هذا العمل ليس تعرية الآخرين، بل تعرية نفسي أمامكم. في كل مرة كنت أصف فيها منافقاً أو كاذباً، كنت أتحسس ملامح وجهي في الظلام خوفاً من أن أكون قد أصبحت واحداً منهم دون أن أشعر. فالعالم سريالي لدرجة أنه يجبرك أحياناً على التلوث

بطين مزيفة للنجاة
، ثم تجد نفسك تبكي في خلوتك غاسلاً روحك بالندم.

كم هو مرعب أن تنظر إلى هاتفك المليء بمئات الأسماء والأرقام، وتدرك في لحظة حزن حاد أنك لا تملك حق الاتصال بأي منهم لتقول له ببساطة: "أنا لست بخير، تعال لإنقاذي". الكل يريدك قوياً، متماسكاً، ساخراً، أو ملهماً. المجتمع لا يرحم الضعفاء، وإذا أظهرت شرخاً واحداً في درعك، ستشن عليك الذئاب لتمزيقك. لذلك نحن نبكي هنا، بين السطور، حيث لا يراصِدنا أحد سوى الورق الأبيض الذي يمتص دموعنا بصمت ودون أحكام مسبقة.

وميض في العتمة

ولكن، رغم هذا السواد والبرد الذي يلف غرفتي الآن، ورغم اعترافي بأن "لا أحد جيد"، إلا أنني أكتب هذه الكلمات لأجلكم أنتم. لأجل تلك الأرواح النقية التي تقرأ لي وتشعر بنفس الحشرجة في حلقها كما اشعر. ربما نكون عاجزين عن تغيير هذا العالم المنافق، وربما نكون قد كُتبتْ علينا العزلة كقدر لا مفر منه، لكن عزاءنا الوحيد هو أننا لسنا وحدنا في هذا الشتات.

نحن غرباء، تفصل بيننا مدن وقارات وشاشات باردة، لكننا نلتقي تحت سقف هذا الكتاب، نتقاسم نفس الألم ونفس الرفض. إن دموعي التي تبلل هذه الصفحات الآن ليست دليل استسلام، بل هي آخر معاقل الإنسانية في داخلي. إنها إعلان بأنني، ورغم كل الطعنات والخيبات، ما زلت حياً، وما زلت أرفض أن أتحول إلى مسخ بليد في سيركهم الكبير. سأبكي حتى الصباح، وعندما تشرق الشمس، سأرتدي درعي الإسمنتي مجدداً، وأخرج لمواجهتهم... وضد الجميع.
الفصل الثامن: الرماد (مرحلة ما بعد الانطفاء)

الفراغ المخيف

بعد ليلة البكاء الطويلة، لا يستيقظ المرء قوياً كالبطل، بل يستيقظ فارغاً. هذا الفراغ ليس حزناً، بل هو أسوأ؛ إنه غياب كامل للمشاعر. تجلس على حافة سريرك وتدرك أن الشغف الذي كان يدفعك للغضب من نفاق البشر قد مات. لم تعد كارهاً لهم، ولم تعد راغباً في كشف أقنعتهم، لقد تساوى لديك حضورهم وغيابهم.

هذا الانطفاء الداخلي هو الحقيقة التي لا تخبرك بها كتب علم النفس. عندما تتوقف عن العتاب، وعندما تمر الخيانة أمام عينيك فلا يرف لك جفن، فأنت لم تصبح شجاعاً، بل أصبحت رماداً. لقد احترق في داخلك الجزء الذي كان يحاول إصلاح العالم، أو العثور على شخص حقيقي واحد. الجليد الذي يلف روحك الآن هو الثمن الحقيقي لمعرفة حقيقة البشر.

العيش بآلية الوجع

تتحول الحياة بعد ذلك إلى طقوس آلية. تمشي في الشوارع، ترى مديح الصالونات، وتسمع كذب الوجوه، لكنك لا تشعر برغبة في الصراخ أو الكتابة. تنظر إلى الناس كأشجار يابسة أو كدمى تتحرك في مسرحية رديئة مللت من مشاهدتها.

القوة التي نصل إليها في هذه المرحلة هي قوة باردة وموحشة. قوتك تكمن في أنهم لم يعودوا قادرين على إيذائك، ببساطة لأنهم لا يملكون شيئاً يخصك لينهبوه. لقد سحبت قلبك وتوقعاتك وآمالك من سوق علاقاتهم، وتركت لهم الأجساد تتحدث وتبتسم نفاقاً بنفاق. أنت الآن تعيش بينهم كشبح، لا ينتمي لسراديبهم، ولا يغريه بريق أقنعتهم.. واقفاً هناك، بهدوء منكسر، ضد الجميع.

الفصل التاسع: أقنعة الأكاديميا (صراع المصالح خلف شعارات العلم)

محراب العلم المزيف

من المفترض أن تكون الجامعات والمؤسسات التعليمية هي الحصن الأخير للنقاء الفكري، المكان الذي تُحترم فيه الحقيقة ويُقدس فيه العقل. لكن بمجرد أن تطأ قدمك هذا العالم وتتجاوز القشور الظاهرية، ستكتشف أنك لم تدخل محراباً للعلم، بل دخلت سوقاً آخر من أسواق النفاق، ولكن برداء أزهى وأقنعة أكثر تنميقاً.

هنا، خلف الألقاب الفخمة والشهادات المعلقة على الجدران، يمارس "النخبة" نفس الألعاب القذرة التي تمارس في الشوارع، بل وبذكاء أشد. يتحول البحث العلمي في كثير من الأحيان من وسيلة لتنوير البشرية إلى أداة لتسلق المناصب وحصد الترقيات. ترى الأبحاث تُسرق، والجهود تُنسب لغير أصحابها، والدكاترة يجاملون بعضهم البعض في لجان التحكيم بناءً على علاقات المصالح الشخصية، لا على قيمة المحتوى.

بورصة التقييم والعبودية الفكرية

في هذا السيرك الأكاديمي، غالباً ما يُعاقب الطالب الصادق الذي يملك فكراً حراً ويجرؤ على مناقشة أستاذه أو نقد نظرياته، فيُوصف بأنه "متمرد" أو "غير مؤدب" وتُنقص درجاته. وفي المقابل، يُكافأ الطالب المنافق الذي يتقن فن التملق، ويهز رأسه موافقاً على كل كلمة يقولها الدكتور، ويتحول إلى مجرد صدى لصوته.

لقد تحول التعليم من مصنع للعقول الحرة إلى مدجنة لإنتاج نسخ مكررة تطيع الأقوى دون تفكير. الصراع داخل أسوار الجامعة ليس صراعاً بين الجهل والمعرفة، بل هو صراع نفوذ، وحب ظهور، وحسد مهني مغلف بعبارات رنانة من اللاتينية أو الإنجليزية الطنانة لإبهار العامة. إنه زيف يرتدي نظارة طبية ويحمل حقيبة جلدية.

الفصل العاشر: نفاق العبادات المظهرية (التدين كقناع للوجاهة)

التجارة بالقداسة

إن أسهل طريقة لخداع الجماهير ونيل احترامهم الأعمى في مجتمعاتنا هي ارتداء قناع التدين الظاهري. يتحول الإيمان من علاقة روحية خفية ونقية بين العبد وخالقه، إلى استعراض مادي يُقاس بطول السجود، ونوع اللباس، والحرص على إظهار الشعائر أمام أعين الناس. النفاق هنا يستعير لغة السماء ليبرر أطماع الأرض.

ترى الشخص الذي يحرص على الصف الأول في المسجد ويطلق لحيته ليراه الناس صالحاً، هو

نفسه الذي لا يتردد في نهش حقوق إخوته في الميراث، أو غش الزبائن في تجارته، أو ظلم من هم تحت سلطته. لقد تم إفراغ العبادة من جوهرها الأخلاقي وتحويلها إلى صك براءة اجتماعي يغسل به المنافق ذنوبه اليومية أمام الناس، متناسياً أن التدين الحقيقي يظهر في المعاملات والأمانة لا في حجم الاستعراض المظهرى.

🎭 سماسرة الأخلاق والوجاهة الاجتماعية

يستخدم المجتمع هذا التدين القشري كأداة للسيطرة والوجاهة؛ فالمنافق اللبق الذي يتقن الحديث بالآيات والأحاديث يُمنح منصب "الناصح الأمين" وتُغفر خطاياه، بينما يُنبذ الصادق النقي الذي يرفض هذا الاستعراض المظهري. إنه سيرك تتبدل فيه الأدوار، حيث يُقاس صلاح المرء بمدى التزامه بالطقوس العامة، لا بنقاء سريرته وصدق مواقفه. [1]

حين يتحول الدين إلى وسيلة لجمع المديح وحصد الهيبة الاجتماعية، يسقط النبل وتموت الإنسانية. هذا الفصل لا ينقد العقيدة، بل يعري أولئك الذين اتخذوا من القداسة جداراً يخفون خلفه أبشع الممارسات والانتهازية، مستغلين طيبة السذج ليظلوا دائماً في صدارة المسرح... وضد الجميع.
الفصل الحادي عشر: المتاجرة بالوجع (سوق العمل التطوعي والخيري)

(ملاحظة من الكاتب: غادرتُ غرفتي هذه المرة، وكتبتُ هذه السطور من على رصيف بارد بعد أن عاينتُ انكساراً لم يحتمله قلبي، ولم أجرؤ على مراجعة حرف واحد منه لتصلكم حشرجة صوتي كما هي).

أكتب لكم وصوت بكاء طفل لا يزال يطن في أذني... تباً لهذا العالم، وتباً لي لأنني اضطررت لتوثيق هذه البشاعة.

كنت أظن أن العمل الخيري هو الملاذ الأخير للإنسانية، المكان الذي نذهب إليه لنغسل أيدينا من قذارة المادة ومصالح الشوارع. لكنني الليلة مكسور، مكسور لدرجة أنني لا أستطيع إيقاف ارتجاف يدي وأنا أضغط على الحروف. لقد رأيتهم اليوم... رأيت أولئك الذين يسمون أنفسهم "صنّاع الأمل" و"سفراء الإنسانية". رأيت كيف يحولون دمعة يتيم ووجع امرأة عجوز إلى "محتوى رقمي" يُقاس بعدد المشاهدات والإعجابات.

كم هو مقزز ومؤلم أن تقف خلف الكاميرا لترى مصوراً يطلب من طفل جائع أن يعيد تمثيل حزنه، أو أن يبكي بشكل أفضل، فقط لتبدو الصورة أكثر تأثيراً على شاشاتهم الباردة. النفاق هنا لم يعد مجرد قناع اجتماعي، بل أصبح تجارة رابحة تُباع فيها كرامة الفقراء في مزاد الشهرة والتبرعات التي تذهب أغلبيتها لتلميع صور هؤلاء الانتهازيين.

أنا أبكي الليلة لأنني عاجز. أبكي لأنني عندما حاولت الصراخ في وجوههم ومنعهم من استغلال ذلك الوجع، نظر إلي الجميع وكأنني أنا المعتدي، وكأنني أنا الذي أقف في طريق الخير. لقد سلبوا من المساكين حتى حقهم في الحزن الصامت والكرامة المستورة. غادرتُ جمعهم الفاخر، وجلستُ هنا في العتمة، أتساءل بمرارة: إذا كان حتى العطاء قد تلوث بالزيف، فأين نذهب بنقاء قلوبنا؟ كيف نصدق هذا العالم مجدداً؟ إنني أنطفئ ببطء، وأموت كمداً وأنا أرى الطهر يُذبح علناً على

مذبح الوجاهة المصطنعة.. واقفاً بدموعي، ضد الجميع.
الفصل الثاني عشر: الرماد المتبقي (مرافقة الصمت الأخير)

أكتب هذه السطور ورائحة الحبر تمتزج برائحة العدم. لقد كفلتُ لكم الحقيقة، ونزعتُ الأقنعة عن وجوه الجميع حتى لم يتبقَّ سوى العظام والرماد. ولكن ماذا يفعل المرء حين لا يعود قادراً حتى على البكاء؟

صمت الكواليس

الآن، وبعد أن أُسدلت الستائر على سيرك النفاق البشري، وانصرف الممثلون إلى ولائمهم، لم يتبقَّ على الرصيف سوى ظل خافت لكاتب أنهكته الأسئلة. لا شيء يكسر هذا الصمت المطبق سوى صوت دقات الساعة، تذكير قاسٍ بأن الوقت يمر، وأننا نستهلك أعمارنا في الركض خلف سراب النقاء.

لم يعد لدي ما أقوله لأولئك الذين يعيشون في النور المزيف؛ فقد أسمعتهم ما يكفي لتستفيق ضمائرهم، لكنهم اختاروا الصمم. وحين يختار العالم الصمم، يصبح الكلام جريمة في حق الهدوء.

الوصية الأخيرة للظل

إذا أغلقت هذا الكتاب يوماً ووجدت نفسك وحيداً تماماً في غرفة مظلمة، فلا تفزع. هذا ليس عقاباً، بل هو ثمن الحرية الحقيقية. أن تقف في مهب الريح، بلا درع، بلا وعود وبلا أمل كاذب، هو التتويج الأخير لروح قررت ألا تنحني.

أنا أنسحب الآن إلى عزلتي الكاملة، أترك لكم هذه الأوراق لتشهد أنني مررت من هنا يوماً، محترقاً بنيران الصدق، وواقفاً... رغم كل شيء، ورغم كل الوجع... ضد الجميع.
الفصل الثالث عشر: الودع الأخير في غرفة العتمة

هكذا إذن، تنطفئ الشمعة الأخيرة، ولا يبقى في الغرفة سوى حفيف الأوراق المبعثرة وصوت الريح وهي تطرق النافذة بلا خجل.

أنا لا أكتب لأسلي أحداً بعد الآن، ولا لأرسم ابتسامة باهتة على وجه غريب لا يعلم كم المرارة التي تجرعتها الحروف. أنا أكتب لأجل ذلك الجزء مني الذي مات قبل الأوان، لأجل الطفولة التي سرقوها بوعودهم الزائفة، ولأجل اللحظة التي أدركت فيها أن الدموع وحدها هي الصديق الوحيد الذي لا ينافق، والظل الوحيد الذي لا يفرّ حين تشتد العاصفة.

لقد طوينا الصفحة الأخيرة من كتاب الخذلان. لا عتب بعد اليوم، لا غضب يستحق أن نبدد من أجله ما تبقى من نبضات، ولا رغبة في إثبات شيء لأحد. فليتقاسموا مسرحهم البائول، وليصفقوا لأقنعتهم المتساقطة، وليبيعوا ما تشاء لهم المصالح أن يبيعوه. أما أنا، فسنكتفي بالصمت، وسأجلس على حافة الروح، أتأمل هذا الشتات بصمت حاد، مكسوراً نعم، ولكن... حراً تماماً.

وداعاً أيها السيرك الكبير. فلتنم يا قلبي، ولتنم يا قلمي، وليشرق فجر بلا نفاق، أو ليأتي الليل

الأبدي... فلا فرق بعد الآن.
الفصل الرابع عشر: ما بعد الحافة

يظن المرء أن السقوط ينتهي حين تلامس القاع، لكن الحقيقة القاسية التي تعلمتها في ذلك الركن المظلم هي أن القاع ليس سوى بداية لطبقات أخرى من العدم.

حين أغلقت الصفحة الأخيرة في ظن مني أن الوداع قد تم، وأن الصمت قد حسم الأمر، أدركت أن جرح الحقيقة لا يلتئم لمجرد أننا أعلنا استسلامنا. ما زال في جعبة الأيام الكثير من الخبايا التي لم يُكشف عن أطرافها، وما زالت أقنعة البشر تخفي خلفها كوارث أشد ضراوة مما سردناه في زحمة السيرك.

أنا لا أكتب لأنتصر، ولا لأقنع أحداً بالعدول عن طريقه. أنا أكتب لأن الرماد الذي تخلّف عن الحريق ما زال يحمل في جوفه شرارة خفية، شرارة تأبى أن تخبو تماماً طالما أن في العروق نبضاً يرفض الخنوع.

استعدوا... فالرحلة في عمق هذا الوجع لم تصل بعد إلى نهايتها الحقيقية، وما خفي خلف ستار هذا العالم المزيّف، أعظم بكثير مما رأت الأعين.

الفصل الخامس عشر: أدلة إضافية من جعبة الزيف (١٥ وجهاً جديداً للنفاق)

لم يكن ما سبق سوى قمة الجبل الثلجي. أما في الأعماق، حيث تتقاطع المصالح وتتعدد الأدوار، فإن النفاق يرتدي أزياء جديدة كل يوم. إليك خمسة عشر دليلاً إضافياً، خمسة عشر مشهداً حياً من واقعنا اليومي الذي يؤكد أن الزيف قد تحول إلى نظام حياة متكامل:
1 نفاق النصيحة العابرة (الوصاية الخفية): ذلك الشخص الذي يقترب منك بابتسامة صفراء ليقدم لك "نصيحة" في ملابسك، أو اختيارك، أو حياتك، مقدماً إياها بغطاء الخوف على مصلحتك، بينما هو في الحقيقة لا يبحث سوى عن إثبات تفوقه الوهمي وتدخل سافر في ما لا يعنيه.

2 المجاملة القسرية في المناسبات (واجبات المجبرين): حين تجد نفسك ملزماً بحضور مناسبات لأشخاص تتمنى ألا تراهم طوال عمرك، تتبادل معهم القبلات والأحضان الباردة، وأنت تعلم أن كل واحد منكم يلعن هذه الساعة في قرارة نفسه، لكن "البرستيج الاجتماعي" يفرض عليكما التمثيل المتقن.

3 نفاق المظلومية المستمرة (احتراف دور الضحية): ذلك النوع من البشر الذي يحترف قلب الحقائق، فيظلمك نهاراً ويبكي عندك ليلاً مظهراً نفسه بمظهر الضحية البريئة، مستغلاً طيبة قلبك ليورطك في شعور زائف بالذنب، بينما هو الخصم والحكم والمستفيد الأكبر.

4 حفلات الوداع الوهمية (دموع التماسيح المكتوبة): عندما يغادر شخص مكاناً ما أو عملاً، تتنافس الألسنة في مدحه وتعداد مناقبه بكلمات رنانة ومبالغ فيها، وتذرف دموع الوداع الكاذبة، وما إن يغادر الباب حتى تبدأ جلسة التشريح الحقيقية وسرد عيوبه التي كانوا يخفونها خلف ابتساماتهم.

5 نفاق الإعجاب الرقمي الإجباري (تبادل المصالح الافتراضية): "اضغط إعجاباً بمنشوريك وسأضغط على منشوراتك"؛ هكذا أصبحت معادلة العلاقات الافتراضية. مئات الأشخاص الذين يتابعونك لا يقرؤون حرفاً مما تكتب، بل ينتظرون دورهم في تبادل الألقاب والمديح ليرضي كل منهم غروره المنفوش على شاشات الزجاج.

6 التملق الإداري (فن الرقص على الحبال): في أروقة الشركات والمؤسسات، تجد من يغير مبادئه وقناعاته بتغير المدير أو المسؤول. يوافق اليوم على ما كان يعارضه بالأمس، ويصفق لقرارات فاشلة فقط لأنه يعلم أن مستقبله مرتبط بمدى قدرته على الانحناء في الوقت المناسب.
7نفاق التبرع الاستعراضي (اليمين التي لا تدر أين اليسار... إلا في الكاميرا): من يقدم مساعدة بسيطة لمحتاج، فيحرص ألا يفعل ذلك إلا بوجود الكاميرات وزوايا التصوير الدقيقة، ليتحول العمل الإنساني النقي إلى حملة دعاية رخيصة تتاجر بأعراض الناس وكرامتهم من أجل حصد لقب "فاعل الخير".

8الابتسامة الصفراء في وجه الخصم (دبلوماسية السم في العسل): حين تقف وجهاً لوجه أمام شخص تعلم يقيناً أنه طعنك في ظهرك، وتضطر لمصافحته بحرارة وتبادل الضحكات المفتعلة معه بحجة "الذوق العام" و"عدم قطع الروابط"، بينما يدك الأخرى تقبض على خنجر مغمد.

9 نفاق الغيرة المغلّفة بالاطمئنان (سمّ السؤال): يتصل بك أحدهم لا للاطمئنان عليك، بل ليتحرى عن فشلك أو أزمتك الأخيرة. يطرح أسئلة ملتوية بغطاء المحبة، وعيناه تلمعان بترقب خفي يريد به سماع خبر سقوطك ليروي به غريزة النقص لديه.

10 تجار القضايا (المتاجرون بالوجع العام): أولئك الذين يتبنون قضايا الشعوب المظلومة أو القضايا الإنسانية الكبرى على منابرهم وشاشاتهم، لا إيماناً بها، بل ليقبضوا ثمنها شهرةً، أو أموالاً، أو مقاعد في دوائر النفوذ، متخذين من آلام الآخرين سلماً يصعدون به نحو القمة.

11 نفاق الاعتذارات المتأخرة (مخلفات الضمير الميت): أن يأتي أحدهم بعد أن دمر نفسيتك واستنزف روحك ليعتذر ببرود قائلاً: "كنت ظروفاً" أو "لمo أكن أقصد"، وهو اعتذار لا يهدف لترميم ما كسره، بل ليرتاح هو من تأنيب ضميره المؤقت، تاركاً إياك تجمع أشلاءك وحدك.

12 الغيرة المتخفية في ثوب الإرشاد (هدم النجاح الناعم): حين تحقق نجاحاً حقيقياً بعرقك، يأتيك أحدهم بملامح حكيمة ليقول لك: "لا تغتر، النجاح السريع زائل، وعليك أن تكون أكثر تواضعاً"، وهو في الحقيقة يغص بنجاحك ويتمنى لو أنك بقيت في مكاناً أدنى منه بكثير.

13 نفاق الدعم المشروط (الوقفات عند المصلحة): تجد المئات بجانبك حين تكون في أوج تألقك وقوتك، يصفقون ويهتفون باسمك؛ وما إن تميل بك السبل أو تشتد بك عاصفة الضعف حتى يختفوا جميعاً كأنهم لم يكونوا، فتدرك أن دعمهم لم يكن سوى استثمار خاسر في شخصك.

14 جلسات النميمة العائلية (السم تحت سقف واحد): حين يتحول التجمّع العائلي من دفء وصلة رحم إلى محكمة مفتوحة للنميمة، يبتسم لك الجميع ويغدقون عليك المديح، وما إن تلتفت حتى تبدأ التساؤلات والاتهامات والتأويلات الخبيثة لكل خطوة تخطوها في حياتك.

15 نفاق العيش بلا هوية (حرب التلون): الشخص الذي يتلوّن مع كل جماعة يجلس معها؛ فهو مع المتدينين واعظ، ومع المتحررين متمرد، ومع الانتهازيين تاجر مصالح، لا يملك مبدأً ثابتاً ولا وجوهاً حقيقياً، بل هو مرآة تعكس ما يشتهيه الجالس أمامه فقط ليضمن رضا الجميع وخسارة نفسه الأبدية.

الفصل السادس عشر: خاتمة السيرك... وصمت من اختار الخروج*

لم يعد هناك أقنعة تُنزع.
كل ما كان يمكن كشفه قد كُشف، وكل ما كان يمكن أن يُقال قد قيل، حتى صار الصدى يتعب من تكرار نفسه في جدران هذه الغرفة.

لقد سرنا معاً في كل زاوية من زوايا الزيف: في الشارع، في الهاتف، في الجامعة، في المسجد، في دار الأيتام، وفي بيوتنا التي ظنناها ملاذاً. رأينا كيف يتحول كل شيء نقي إلى سلعة، وكيف تُوزن الكرامة بالميزان وتُباع في العروض.

والآن؟

1. سوق الخواء: حين يشبع الجميع من الكذب
بعد سنوات من التصفيق الحار، يبدأ الجمهور بالتثاؤب.
الناس نفسهم الذين كانوا يركضون وراء "المؤثرين" و"القادة" و"المصلحين" اكتشفوا أن كل الوجوه متشابهة تحت المكياج.
المنافق تعب من النفاق. والمُصفّق تعب من التصفيق.
حتى الكذبة الكبيرة حين تُعاد ألف مرة تفقد بريقها، وتصبح مملة.
المجتمع دخل مرحلة "التخمة من الزيف". لم يعد أحد يصدق أحداً، ولهذا صار الجميع يمثل بلا حماس. مسرحية بلا مخرج، وممثلون ينسون أدوارهم في منتصف المشهد.

2. جيل الرماد: الذين ولدوا بعد الحريق
نحن لسنا الجيل الذي انخدع ثم استفاق.
نحن الجيل الذي وُلد ووجد الرماد بارداً.
لم نعرف يوماً عالماً بلا أقنعة، فلم نصدم عندما سقطت.
لم نُعطَ وعوداً لنخيب فيها، لذلك لم ننتظرها.
نحن لا نغضب من الخيانة... نحن نستغرب حين يحدث الوفاء.
نحن لسنا أقوياء. نحن فقط "لا شيء يمكن كسره فينا بعد الآن".
تسموننا باردين، قاسين، انعزاليين. ونحن نسمي ذلك: البقاء.

3. قانون الصمت الجديد
في البداية كنت أصرخ. ثم كتبت. ثم سخرت. ثم بكيت.
والآن... أسكت.
لأنني أدركت أن أبلغ رد على سيرك كامل هو أن تنسحب منه دون أن تُحدث ضجيجاً عند الباب.
أن تعيش، وتأكل، وتعمل، وتضحك أحياناً... دون أن تمنحهم شرف معرفة ما يدور في رأسك.

الصمت هنا ليس ضعفاً. الصمت هو السلاح الأخير لمن سُلبت منه كل الأسلحة.
حين تصمت، لا يستطيعون تحريف كلامك. وحين تختفي، لا يستطيعون المتاجرة بغيابك.

4. الوصية لمن بقي
إذا وصلت لهذا السطر وما زلت تقرأ، فاعلم أنك مثلي: نجوت ولكنك مثقوب.
لذلك اسمع وصيتي الأخيرة ولا تنساها:

- *لا تنقذ أحداً رغماً عنه.* من أراد الغرق في نفاقه فليغرق. يدك ستنكسر إن مددتها كثيراً.
- *لا تشرح نفسك.* من لم يفهمك في صمتك، لن يفهمك في محاضرة.
- *احتفظ بشخص واحد... أو لا أحد.* الجودة في العلاقات ليست رفاهية، بل مسألة حياة أو موت.
- *وإذا اضطررت للكذب يوماً، فاكذب على نفسك بأقل قدر ممكن.* هذا هو الخط الأحمر الأخير.
* الإسدال الأخير*

ها أنا أغلق الدفتر. الحبر جف، واليد ارتعشت للمرة الأخيرة.
لا أعدكم بعالم أفضل، ولا أعدكم بأنني سأكون بخير.
أعدكم فقط بشيء واحد: أنني لن أعود للمسرح.

فليكملوا العرض من دوني.
فليصفقوا، وليصرخوا، وليتاجروا، وليتصالحوا، وليتخانقوا...
أما أنا فسأجلس في آخر الصف، في العتمة، أشاهد الباب المفتوح على مصراعيه،
وأبتسم ابتسامة حقيقية للمرة الأولى...
لأنني أخيراً
*_خارج اللعبة.
ضد الجميع.
ومع نفسي.__
الفصل السابع عشر: ما بعد الرماد - جغرافيا العدم

قالوا أن بعد القاع يأتي الصعود.
كذبوا.
بعد القاع يأتي... *لا شيء*.
أرض مستوية، بلا مرتفعات ولا حفر. مجرد صحراء داخلية تمتد بلا أفق.

1. تشريح الهدوء المميت

أول ما ستلاحظه بعد أن تنطفئ تماماً هو أن الضجيج توقف.
لا أصوات في رأسك. لا معارك. لا "لماذا فعلوا بي؟"
صمت أبيض، ثقيل، كالثلج.
في البداية ستظنه راحة.
ثم ستكتشف أنه أخطر من كل الضوضاء:
لأنه صمت القبور.

أنت لم تشفَ... أنت فقط توقفت عن النزيف لأن الدم كله خلص.

2. اقتصاد المشاعر الجديد

صرت تتعامل مع مشاعرك كرجل مفلس يحسب كل قرش:
- *الغضب؟* مكلف. يستهلك طاقة ولا يغير شيئاً. ملغى.
- *الحماس؟* وهم. يبيعك حلماً ثم يتركك مع الفاتورة. ملغى.
- *الحب؟* استثمار خاسر. العائد صفر. ملغى.
- *الأمل؟* مخدر رخيص. مفعوله ينتهي بسرعة. ملغى.

لم يتبقَ في المحفظة سوى عملة واحدة: *"تمام"*.
"كيف حالك؟" ـ "تمام".
"تحتاج شيء؟" ـ "تمام".
"موجوع؟" ـ "تمام".
كلمة واحدة تسد كل الثغرات.

3. عادة التخفي وسط الأحياء

تمشي بينهم كشبح رسمي.
تضحك في الوقت المناسب، تهز رأسك بكل برود ، تسأل "كيف الاطفال و العائلة ؟"
تتقن دور "الإنسان الطبيعي" ببراعة ممثل ميت من الداخل.
الفرق الوحيد: أنت تعلم أنك تمثل. وهم لا يعلمون أنهم هم المسرح.
وهذه هي متعتك الوحيدة المتبقية:
أن تراقبهم وهم يصدقون تمثيلك... بينما أنت لا تصدق تمثيلهم.

4. فخ الذكريات المعاد تدويرها

الخطر الوحيد المتبقي هم أنت.
في الليالي الباردة، حين يهدأ كل شيء، يعود عقلك ويفتح أرشيف الخيبات.
يعرض لك لقطة: وجه صدقته. وعد انكسر. ضحكة كانت صادقة ثم تحولت لسم.
ستقبض يدك على لا شيء. وستهمس: "كان يمكن".
إياك.
"كان يمكن" هو الباب الخلفي الذي يدخل منه النفاق مجدداً لقلبك.
أغلقه بالقفل و ادفن المفتاح.

5. قانون البقاء الأخير

وصلت لآخر قانون، ولا يوجد بعده قوانين:

لا تقترب. لا تبتعد. فقط... كن.
كن موجوداً بجسدك، غائباً بروحك.

كن قريباً بالمسافة، بعيداً بالتوقعات.
لا تعطيهم حباً فيتخذوه ضعفاً.
ولا تعطيهم كرهاً فيتخذوه سبباً.
أعطهم "لا شيء".
الـ "لا شيء" هو الدرع الذي لا يخترقه أحد.

---

* هامش من الكاتب على حافة العدم*

أكتب هذا الفصل وأنا لا أشعر بيدي.
ربما تجمدت. ربما ماتت. لا فرق.
كنت أظن أن أسوأ شيء هو أن تكره البشر.
ثم اكتشفت أن الأسوأ هو أن *لا تكرههم ولا تحبهم*.
أن تنظر إليهم كما تنظر إلى المطر على الزجاج: تراه، تسمعه، ثم تنساه.

إذا كنت تقرأ هذا وقلبك ما زال ينبض بحرارة... اهرب.
اهرب بكل ما تبقى منك.
أما إذا كان قلبك بارداً مثلي، فمرحباً بك في جغرافيا العدم.
المقاعد هنا كثيرة، والصمت مجاني، والباب... مفتوح للخروج لكن لا أحد يخرج.

لأننا ببساطة:
*_تعبنا من الدخول. وتعبنا من الخروج.
فقررنا البقاء في الوسط... ضد الجميع.__

الفصل الثامن عشر: شَقٌّ في الجدار*

قلتُ لك في الفصل السابق: الباب مفتوح للخروج، ولكن لا أحد يخرج.
واليوم أكذب.
فقد وجدتُ شقّاً
كان ضيّقاً بحجم ثُقب إبرة.
جاء في يوم عادي، يومٍ لا لون له.
طفلٌ تعثّر في الطريق ثم ضحك بدل أن يبكي.
عجوزٌ زادتني بضعة خضراوات "هدية" ولم تطلب تصويراً.
رسالة من رقم مجهول: "قرأت كتابك. لم أشعر بالوحدة هذه الليلة."

لم أبكِ، ولم أفرح.
اكتفيتُ بالملاحظة.
وفي صحراء العدم، الملاحظة وحدها تُعدّ معجزة.
الضوء خطر.
لأنه يُذكّرنا بأننا كنا أحياء من قبل.

والذاكرة أول مدخل إلى الألم.
حين يتسلل شعاع من الشق، نرى الغبار الذي حسبناه نظافة،
ونرى وجوهنا في المرآة فنكتشف أننا لم نمت، بل تجمّدنا.

أغلقتُ الشق على عجل.
ولكن الضوء ترك أثراً.
بقعة صغيرة على الجدار تقول: "كان هنا أملٌ ذات مرة".

قررتُ ألا أكون "ضد الجميع" بتهوّر،
ولا "مع الجميع" بسذاجة.
فكانت المعاهدة:

1. *لا أنتظر من أحد شيئاً* ـ كي لا أنكسر.
2. *لا أرفض كل شيء من أحد* ـ كي لا أختنق.
3. *آخذ النقي إذا قُدّم، وأتركه يمضي إذا أراد* ـ بلا مطاردة ولا عتاب.

سَمِّها جبناً إن شئت. وأنا أسميها هدنة.

ما زلتُ أرتدي درعي.
وما زلتُ أجيب بـ "بخير".
وما زلتُ أراقب المسرح من بعيد وأبتسم سخرية.

ولكن...
في الليالي الثقيلة، أترك الشق مفتوحاً دقيقة واحدة.
أتنفس.
ثم أغلقه.

ليس لأني شُفيت.
بل لأن الموت البطيء في العدم
أقسى من وجع صغير على أمل صغير.

إن كنت مثلي وقد بلغت هذا السطر، فاسمع:
لا يلزمك أن تسامح العالم، ولا أن تكرهه.
يكفي أن تُبقي في جدارك شقّاً صغيراً... بحجم نَفَس.

لعلّه يأتي من لا يطلب منك بطولة ولا تضحية ولا إنقاذاً.

يطلب منك شيئاً واحداً فقط: *أن تكون*.

وحينها سنعرف
أكنّا نبني حصناً، أم كنا نحفر قبراً.
#الفصل التاسع عشر: أثقال خفيفة*

قلتُ في الفصل الماضي إنني تركتُ شقّاً.
ولم أقل إن الشق بدأ يتنفس.

اكتشفتُ متأخراً أننا لا ننهار من الضربة الكبيرة.
ننهار من حملِ أشياء صغيرة كل يوم.
رسالة لم تُرد.
نظرة تجاهل.
وعدٌ قيل على عجل ونُسي.

فقررتُ أن أضعها أرضاً، واحدةً تلو الأخرى.
لا غفران. لا نسيان.
فقط... *لا أحملها بعد اليوم*.
صار يأتيني بشرٌ جدد.
لا يسألون: "لماذا أنت هكذا؟"
ولا يقولون: "عُد كما كنت".
يمرون بجانبي، يبتسمون، ويمضون.
وبعضهم يترك فنجان قهوة على الطاولة ويرحل.

في البداية حسبتُها مصيدة.
ثم فهمتُ: هناك من لا يريد منك إلا أن تكون موجوداً.
وهذا أندر أنواع البشر.
صرتُ أفتح الشق كل ليلة دقيقة واحدة.
لا أكثر.
أتنفس فيها بعمق، ثم أغلقه.
في هذه الدقيقة لا أفكر في الأمس ولا أقلق على الغد.
أفكر في الهواء فقط.
والهواء لا يخون.

سمّها عبادة. سمّها علاجاً.
أنا أسميها: *إثبات أني ما زلت حياً*.

قالو ان لكل إنسان حق لكن انا لم انلهم وأكثرهم
الحق في الخوف
_خفتُ أن ألين فأُكسر.
_خفتُ أن أصدق فأُخذل.

_ولكني خفتُ أكثر من فكرة أن أموت واقفاً داخل حصنٍ لا باب له.

فاخترتُ حلاً وسطاً بائساً وجميلاً في آن:
أن أبقى مغلقاً، ولكن بتهوية.

إن مررتَ ببابي يوماً فلا تطرق بقوة.
اترك شيئاً صغيراً عند العتبة وامضِ.
كلمة. وردة ذابلة. صمتٌ محترم.

فربما في إحدى الدقائق التي أتنفس فيها
سأجد ما تركته،
وأبتسم ابتسامة لا يراها أحد...
ولكنها تحدث.

وليس هذا انتصاراً على العالم.
إنه انتصار صغير عليّ أنا.

تمام. مسحنا "الشق".
هذه نسخة أشد. عبرٌ من حديد... ومسمومة كسم الأفعى.

الفصل العشرون: ما بعد الحصار*

لا جدار. لا باب. لا شق.
فجّرتُ المكان كله ووقفتُ على الرماد.
دفنتُ "بخير". دفنتُ "شكرا"دفنتُ الابتسامة المجانية.
من اليوم فصاعداً:
إن كنت حياً سأقول حي.
وإن كنت محترقاً سأقول محترق.
من لا يحتمل الحقيقة فليختنق بها بعيداً عني.
اللطف الذي يُشترى بالكذب... دين ربوي. وفوائده تقتلك.
لا أمد يدي. لا أركع. لا أشرح.
إما أن تقف أمامي رجلاً لرجل...
وإما أن تمسح حذاءك على عتبتي وتخرج.

من أراد قربي فليأتِ محمّلاً لا متسوّلاً.
ومن أراد ودّي فليدفع ثمنه: احتراماً لا شفقة.
ومن لا يعرف وزنك سيزنك بميزان مصلحته. فاكسر الميزان.
أبني ما لا يخون:
عقلاً حاداً. وجيباً ثقيلاً. وجسداً لا يُكسر.

واسماً إذا ذُكر ارتجف الجبناء.

الناس؟
عملة متقلبة. اليوم ذهب، وغداً تراب.
فلا تستثمر فيهم كل رأس مالك.
لا تطلب من البشر ماءً. احفر بئرك. فالعطشى يبيعون السراب.
كنتُ أظن الخيانة طعنة.
فاكتشفتُ أنها درس.
وكنتُ أظن الوحدة عقوبة.
فاكتشفتُ أنها تتويج.

تألمتُ؟ نعم.
ومتُّ؟ لا.
ومن لم يقتله الألم... صار هو السم .
لا تنتقم. كن أنت العقوبة التي يخشون تكرارها.
انتهى زمن الاستجداء.
وانتهى زمن التبرير.
بدأ زمنٌ واحد: *أنا هنا. بثقلي. بحدّي. بسمّي.*
من اقترب باحترام عاش.
ومن اقترب بخبث... لدغته.

لسنا ملائكة.
ولسنا ضحايا.
نحن الناجون الذين تعلموا الكتابة بدم أعدائهم و بحسد أقرانهم
الفصل الحادي والعشرون: دفتر السموم*

أغلقتُ باب الشكوى.
وفتحتُ دفتراً آخر. غلافه جديد... وصفحاته سم.
كنتُ أتوقع منهم وفاءً. فخذلوني.
أتوقع منهم عدلاً. فظلموني.
أتوقع منهم عقلاً. فتغابوا عليّ.

فشطبتُ كلمة "أتوقع" من قاموسي.
الآن لا أتوقع شيئاً... فلا أُخذل بشيء.
كل توقع هو سكين تعطيها للآخرين ليطعنوك بها. فلا تُسلّم سكاكينك لمن يطلبها باسم الصراحة .فأنا ببساطة
لن أنسى.
ولن أنسى من باعني في الرخاء واشتراني في الشدة.
لن أنسى من صمت حين احتجتُ صوته.
ولن أنسى من ضحك حين بكيت.

الغفران؟ ذلك للضعفاء.
أما أنا فأحتفظ. وأدوّن. وأتذكر.
حتى إذا التقيتُ بهم يوماً... أبتسم ابتسامة باردة يعرفون معناها.
النسيان رفاهية لا يملكها من نجا. الناجي يتذكر.
خط أحمر. ثم خط أحمر آخر. ثم جدار.
من تجاوزه مرة قُطعت يده.
ومن تجاوزه مرتين قُطع لسانه.
ومن تجاوزه ثلاثاً... مُحي من الوجود.
لا تحذير ثانٍ. لا فرص.
الرحمة انتهت في الفصل الماضي.
فمن لا يحترم حدودك بالقوة... سيحترمها بالخوف.
اكتشفتُ أن أخطر مكان بين الناس.
وأأمن مكان هو مع نفسي.
فصرتُ أجالس كتبي، وعرقي، وناري.

لا أبحث عن أحد.
وإذا أتاني أحد فليأتِ وهو يعلم:
أنا لستُ بحاجة. أنا اختيار.
من لا يحتاج لأحد... يملك الجميع. ومن يحتاج للجميع... لا يملك شيئاً.
هذا دفتري.
لا أكتب فيه شعراً.
أكتب فيه أسماء الدروس التي كادت تقتلني... فصارت أسلحتي.

ومن قرأه فليعلم:
السم لا يُشرب مرتين.
والذي نجا من المرة الأولى... صار هو السم.
الفصل الثاني والعشرون: سماسرة المآسي (أسياد الدموع الجاهزة)

هناك نوع من النفاق لا يُقاس بابتسامة صفراء أو مديح مزيف في الصالونات؛ إنه النفاق الذي يرتدي ثوب البطولة الإنسانية ليقتات على رماد الموتى وأنين المنكوبين. هذا ليس نفاقاً عادياً، بل هو استثمار دنيء في أبشع كوارث البشرية.

تأمل مشهد الفجيعة الكبرى: زلزال يهدم بيوتاً فوق رؤوس ساكنيها، أو حرب تحصد الأخضر واليابس. في اللحظة التي يرتجف فيها الأرض أو تتصاعد أحدث أعمدة الدخان، لا تدرك أين تنتهي مأساة الضحايا وأين تبدأ مسرحية "تجار الأزمات".

1. كاميرات على جثث الموتى

يصلون إلى قلب الكارثة لا لحمل طوب أو انتشال جريح، بل ومعهم حشود المصورين والإضاءة. تقف السيدة الفاضلة أو الناشط "الإنساني" أمام كاميرا البث الحي، تذرف دمعة مدروسة بعناية أمام زاوية التصوير المثالية، وتلقي خطاباً عصماء يقطر دراما عن "معاناة الأهالي".

وما إن يتوقف التسجيل وتختفي العدسات حتى يغادر هؤلاء على متن سياراتهم الفارهة، تاركين خلفهم وجعاً حقيقياً لا يملك حتى ترف الشكوى أمام كاميرات الميكروفون. بالنسبة لهم، الدموع ليست سوى رأس مال رمزي، والمأساة هي "الموسم" الأهم لحصد الشهرة، وتمويل الجمعيات الوهمية، وإرضاء غرورهم المتضخم على حساب أرواح لا حول لها ولا قوة.

2. تبرعات في جيوب الوسطاء

ولا تتوقف المهزلة عند حدود الاستعراض البصري، بل تمتد إلى ما هو أطحن: المتاجرة بالمعونات. تُفتح حسابات التبرع العاجلة تحت شعارات رنانة تدمي القلوب، وتتكدس صناديق الإغاثة القادمة من قلوب نقية أرادت أن تفعل خيراً.

لكن في الكواليس، يدور كواليس أخرى: توزيع الحصص بالوساطة، واختفاء الجزء الأكبر من الأموال لصالح "مصاريف إدارية" وهمية، وإصلاح سيارات القائمين على المؤسسة الوهمية. يقتاتون على خبز الجائع ويستدفئون ببطانيات المشردين، ثم يعودون في المساء ليشربوا نخب نجاح حملتهم الإنسانية في صالوناتهم المغلقة.

اعتراف على حافة الدمع

أنا لست قاسياً لدرجة ألا أبكي، لكنني بكيت حتى تيبست مقلتاي على أناس يبيعون دمعة اليتيم في مزاد علني.

حين رأيتهم يضحكون خلف الكواليس بعد أن أتموا تمثيلية المواساة، أدركت أن العالم لا يعاني نقصاً في الخبز أو الدواء، بل يعاني نقصاً حاداً في الضمير.

ليحرق الله مسرحهم، وليبتلع الرماد كل أقنعتهم. نحن لا نرجو منهم شيئاً، ولا نريد لعطفهم المزيف أن يطرق بابنا.

فلتسقط كل شعاراتهم الخادعة... ويبقى الوجع طاهراً، ونظيفاً، وبعيداً عن أيدي لصوص الإنسانية.

الفصل الثالث والعشرون: سكاكين العتبة (سيرك العائلة الكبير)

لقد خدعونا منذ المهد بعبارة: "العزوة سند، والبيت هو الحصن الأخير". علمونا أن الدم لا يترسب ماءً، وأن الأقربين أولى بالمعروف، فدخلنا بيوت العائلة بقلوب مكشوفة، وأذرع ممدودة، ويقين مطلق بأننا بين أحضان تدافع عنا لا تطعننا. لكن الحقيقة المرة التي تكتشفها بعد أول خذلان حقيقي هي أن العائلة – في كثير من الأحيان – ليست سوى أصغر سيرك في هذا العالم، وأكثر مسارحه قسوة ومهارة في إخفاء السم داخل العسل.

1. محكمة العشيرة (النميمة بغطاء صلة الرحم)

تلتئم العائلات تحت شعارات مقدسة مثل "صلة الرحم" و"التجمّع العائلي"، فتظن لوهلة أنك وسط ملاذ آمن. وما إن تكتمل الحلقات، وتدور فناجين القهوة، حتى تتحول الجلسة إلى محكمة تفتيش سرية ومفتوحة.

لا شيء يسلم منهم: ملابسك، طريقة كلامك، صمتك الذي يفسرونه غروراً، نجاحك الذي يوقد غريزة الحسد في صدورهم، وحتى عثراتك التي تختزنها ذاكرتهم الجماعية كذخيرة حية. يبتسمون في وجهك، يمدحون حضورك، وبمجرد أن تلتفت أو تغادر الغرفة، تبدأ ماكينة التشريح العائلي بالعمل: "من أين له هذا؟"، "ابن فلان تغير وصار يتكبر"، "انظروا كيف يجلس". إنها المحكمة الأشد ظلماً، لأن القاضي فيها يرتدي ثوب العمة أو الخال، والجلاد يبتسم لك بحرارة وهو يغرس الخنجر في سيرتك.

2. تسعير الأبناء (مقارنات القهر اليومي)

في أروقة العائلة، لا يُقاس الإنسان بفكره أو نقاء سريرته، بل بمدى تطابقه مع معايير "القطيع". تبدأ المعركة من داخل البيت، حيث تُعقد مقارنات سامة بين الأبناء والإخوة وأبناء العمومة: "لماذا لست مثل فلان؟"، "انظر إلى ابن خالتك كيف أصبح مهندساً وأنت ما زلت تائهًا".

يتم تسعير الأطفال والمراهقين كسلع في سوق الغرور العائلي؛ الأقوى ماديّاً يُبجّل ويُصغى لكلامه حتى لو كان جاهلاً، والمكافح الصادق الذي يرفض السير في الطرق المعوجة يُهمّش ويُعامل كعضو معطوب في الجسد العائلي. لقد حوّلوا روابط الدم إلى بورصة مصالح ضيقة، حيث لا يحترمك أحدهم لذاتك، بل لما تملكه من وجاهة أو منصب يرفع من أسهمهم أمام الآخرين.

3. الابتزاز العاطفي (صكوك الغفران الأسرية)

"أنا والدك، أنا من ربّيتك"، أو "أنا أختك التي تحملتُك". تصبح عبارات الفضل والمنّ أدوات للسيطرة والعبودية النفسية. يعتقدون أن مجرد انتسابك لهم يمنحهم حق التدخل المطلق في تفاصيل حياتك، وفي اختيار مستقبلك، وحتى في مساحات صمتك.

إذا قررت أن تضع حدوداً حمراء، وأن تعيش حياتك باستقلالية، صرخوا في وجهك متهمين إياك بالعقوق، وواضعين إياك في قفص الاتهام الأخلاقي. يطالبونك بالطاعة العمياء والتنازل عن كرامتك مقابل "الرضا العائلي"، ناسين أن الحب الحقيقي لا يُبنى على الابتزاز، وأن الرضا الذي يُنتزع بالقهر ليس سوى قناع آخر من أقنعة الزيف الاجتماعي.

اعتراف على حافة الدمع

أنا لا أنكر فضل من أحسن إلي بصدق، لكنني أكتب اليوم وأنا أنزف من مكان توقعت أنه الأمان الوحيد.

حين تكتشف أن الجرح الأعمق في روحك قد خطته أيدٍ من نفس دمك، تفقد القدرة حتى على العتاب. العائلة التي لا تقبل أن تكون على طبيعتك، والتي تشترط لكسب رضاها أن ترتدي قناعاً

شبيهاً بأقنعة الشارع، هي عائلة مفلسة إنسانيا.

لقد أغلقت دفتر العتب بينهم، وأدركت أن أقوى الحصون هي التي تبنيها بنفسك بعيداً عن ضجيج الأرحام المزيفة.

فليذهب استعراضهم العائلي إلى الجحيم... وسيبقى قلبي حراً، منيعاً، وضد الجميع حتى في بيتي.

تمام. نخليه بشكل "فصل من كتاب" بصيغة رسمية

الفصل الخامس والعشرون: هُدنة الظل مع العدم
بعد أن نزعنا كل الأقنعة، وبعد أن سرنا في مقبرة التوقعات حتى آخر قبر...
لم يعد في اليد سيف، ولا في القلب حرب.
في هذه المرحلة لا ينتصر الإنسان، ولا يُهزم.
فقط يتعب.
فيتوقف.
ويتفق مع العدم على هدنة.

هذا الفصل ليس اعتذاراً عن القسوة التي سبقته.
ولا تراجعاً عن الحقيقة.
هو فقط اعتراف بأن الصراخ المتواصل... يفقد الصوت.

لم يعُد الحرف يجرح،
ولا الدمع يتبلور على الورق.
صار بيني وبين الحقيقة ممر طويل،
أترك فيه الكلمات معلقة،
لا أقولها كاملة...
ولا أبلعها.

حين تساوت عتمة الغرفة بضوء الشارع،
انطفأ آخر سؤال في رأسي.
لا أحارب السيرك بعد الآن،
ولا أصفق له.
صرت مرآة مكسورة:
تعكس الضوء... ولا تحتفظ به.

ربما كان هذا الكتاب كله
مجرد فأس هدمتُ بها الجدار،
فوجدتُ خلفه صحراء.
واتضح أن الصحراء وحدها
هي ما يبقى حين تسقط الأقنعة وتهتز الجسور.

أنا لا أفسر شيئاً بعد الآن.
ولا أعترض.
تركت الباب مطبقاً على نصفه،
والظل مستنداً إلى حائط الحيرة.

من أراد أن يفهم...
فليقرأ الصمت بين السطور.
ومن أراد أن يرحل...
فليعلم أن الطريق لم يعُد يحتاج إلى دليل.

انتهت الحرب.
وبدأت الهدنة.
هدنة باردة، بيني وبين لا شيء

الفصل السادس والعشرون: هُدنة الظل مع العدم*

قال نيتشه: *"من يُصارع الوحوش عليه أن يحذر أن يصبح وحشاً"*
وأنا صارعتُ... حتى تعبت.
قال محمود درويش: *"على هذه الأرض ما يستحق الحياة"*
وأنا بحثت... فلم أجد إلا ما يستحق الصمت.
وهنا، في هذه اللحظة، تُعقد الهدنة.
ليست مع العالم.
مع نفسي.

كنتُ أظن أن الحقيقة سيف.
فاكتشفتُ أنها جرح لا يلتئم.
وكنتُ أظن أن الصراحة نور.
فاكتشفتُ أنها تحرق من يحملها أولاً.

قال سارتر: "الجحيم هم الآخرون"
فانسحبتُ من الجحيم.
وقال علي بن أبي طالب: "اعتزل ما يؤذيك"
فاعتزلت.

لم أعُد أكتب لأُقنع أحداً.
ولا لأُغير أحداً.
أكتب فقط لأن الرماد في صدري
لو لم أنفخه... خنقني.

توقفتُ عن توقع الوفاء،

فصدق قول جبران: *"لا تعطِ أحداً المفتاح الذي يغلق به بابك"*
وتوقفتُ عن شرح نفسي،
فصدق قول دوستويفسكي: *"من لا يفهمك من صمتك، لن يفهمك من كلامك"*

الآن؟
أنا في منتصف الطريق.
لا داخل السيرك، ولا خارجه.
كالظل.
موجود... بلا وزن.

تركتُ الباب مواربا.
ليس كرماً.
ولكن لأن إغلاقه بالكامل يحتاج طاقة...
وقد نفدت.

من أرادني فليأتِ بلا ضجيج.
ومن أراد الرحيل... فليذهب بلا عتاب.
فكما قال الرومي: "لا تطرق الباب، الباب يُفتح من الداخل"
وبابي لم يعُد يُفتح إلا من داخلي.

خاتمة الفصل
قال كافكا: "الطريق إلى الخلاص يمر عبر صحراء لا تنتهي"
فها أنا في الصحراء. ام أن الصحراء هي من آوتني بعد معاناتي ياله من أمر.
لا أنتظر واحة.
ولا أخاف العطش.
اكتفيتُ بظلي.

الهدنة ليست سلاماً.
الهدنة هي: *أن تتوقف عن إعطاء عدوك شرف أن قتالك .*

الفصل السابع والعشرون: الغرق في المحبرة
حين يتواطأ العالم ضدك، وتصبح العائلة مجرد اسم في شهادة الميلاد لا ملجأ يضم شتاتك... لا يتبقى لك سوى هذه الورقة البيضاء.
الورق لا يملك عيوناً ليحكم عليك بالنفاق، والحبر لا يملك لساناً ليلومك على ضعفك.
الآن، سقطت تلك الابتسامة الزائفة التي كنت أرتديها أمام مجتمع لا يرحم؛ مجتمع يتغذى على انكسارك، ويتحين الفرصة ليضعك في موقف محرج ينهش فيه ما تبقى من كرامتك.
أنا هنا الآن... عارٍ من كل حيلة، محطم، منكسر، ودون أي حل.

لقد تعبت من تزوير ملامحي.
تعبت من تلك الابتسامة البلاستيكية الباردة التي كنت ألطخ بها وجهي كل صباح، فقط لأقنع المارة في الشارع بأنني على قيد الحياة.

المجتمع لا يريد أن يرى حزنك؛ يريدك دمية تتحرك بانتظام، فإذا انكسر ترسك، داسك الجميع ومضوا.
كم هو مرعب أن تمر بمواقف خانقة، وسط زحام من البشر، وتشعر أنك وحيد تماماً...
تتلفت حولك تبحث عن كتف تبكي عليه، فلا تجد سوى الظلال المتطايرة.

لا عائلة أركض إليها حين يشتد البرد في صدري.
لا بيت دافئاً يغلق بابه على أوجاعي ويقول لي: "أنت في أمان".
أنا غريب في بيتي، وغريب بين دمائي، وغريب في شوارع مدينتي.
الحل؟ لا يوجد حل.
الخروج من هذا النفق يبدو مستحيلاً، لأن النفق نفسه صار هو حياتي اليومية.

لذا، أنا أصبّ نفسي الآن فوق هذه السطور.
أحكّ جلدي المحترق بحواف الكلمات الحادة، علّ الوجع يخرج مع الحبر.
هذه الكتابة ليست رفاهية، وليست أدباً، إنها صرخة غريق يمسك بالقلم كأنه قشة النجاة الأخيرة.
الورق يتشرب دمي ويمتص كسوري دون أن يشعر بالقرف مني.

أنا منكسر بالكامل، والقطع متناثرة بشكل يصعب جمعه.
أمام المجتمع أنا "بخير"، وأمام الورقة أنا الحقيقة العارية المقيتة.
انتهى الكلام، وجف الريق، ولم يتبقَّ سوى سواد الحبر السواد الذي يشهد على سواد حياتي
الفصل الثامن والعشرون: الورقة البيضاء
بعد أن أفرغت كل ما في صدري على الورق، بقيت صفحة واحدة لم أكتب فيها شيئاً. لم تكن نسياناً ولا هروباً. كانت قراراً.
انتهيت من الكتابة عن الآخرين. عن خذلانهم وعن صمتهم وعن كل المعارك التي خضتها لأجل أن أثبت أني كنت على حق. وفي النهاية وجدت نفسي وحيداً مع كومة أوراق ولا شيء تغير. لا هم فهموا، ولا أنا ارتحت.

حينها أدركت أن المشكلة لم تكن فيهم وحدهم. المشكلة أني أعطيتهم مساحة في رأسي أكبر مما يستحقون. كنت أعيد الحديث معهم كل ليلة، وأرد على كلام لم يقولوه، وأفسر صمتاً لم يكن مقصوداً أصلاً. كنت أستنزف نفسي في حرب انتهت منذ زمن.

فقررت أن أوقف هذا. سحبت نفسي بهدوء. بلا إعلان. بلا خطاب وداع. حذفت الأرقام، وتجاهلت الأماكن، وكففت عن تبرير غيابي. لم أعد مديناً لأحد بشرح.

بدأت أعود إلى الأشياء البسيطة. أستيقظ بلا تنبيهات. أقرأ كتاباً ولا أبحث عن جملة أنشرها. أمشي في الشارع ولا أفكر في من سيراني. أشرب قهوتي وأنا ساكت. للمرة الأولى منذ مدة طويلة، كان الصمت لا يخيفني.

لم أتصالح مع الماضي. ولم أنسَ. فقط وضعته في رف بعيد وقلت: كفى. من أراد أن يدخل حياتي الجديدة فليدخل بلا ملفات قديمة. ومن أراد أن يحاسبني على ما كتبته سابقاً فليحتفظ بحسابه لنفسه.

أغلقت الدفاتر القديمة كلها. وتركت دفتراً جديداً فارغاً على الطاولة. ليس وعداً بالكتابة، ولا نذراً بالصمت. هو فقط مساحة. فإن جاء يوم وكان لدي شيء يستحق أن يُقال، سأكتبه. وإن لم يأتِ، فلا بأس. لست مضطراً أن أملأ كل الفراغ بالكلام.
الفصل التاسع و العشرون: النظرة الأولى*
قررت أن أطوي ما مضى. لا عتاب، ولا انتظار. قررت أن أمضي في طريقي. ولم أكن أدري أن الطريق سيقودني إليها.
اتصل بي أهلي ذات يوم. قالوا: "هناك فتاة من عائلة كريمة، ذات خلق ودين. تعال فانظر". لم أناقش. وافقت. لم يكن ذلك قناعة بقدر ما كان إعياءً من الجدال.

دخلت المجلس. وكانت هي في الغرفة المجاورة، يفصل بيننا باب موارب. لم أتبين ملامحها في البداية. رأيت هيئتها فقط. جلستها متزنة، ويداها فوق بعضهما، وعيناها على الأرض. لا تكلف ولا تصنع.

تحدث والدها، وتحدثت أمي، وحين سُئلت أجابت بجملة واحدة: "ما ترونه مناسباً". كان صوتها ثابتاً لا اضطراب فيه. وفي تلك اللحظة سادني سكون غريب. كأن ضجيجاً قديماً في داخلي قد انطفأ فجأة.

خرجت ولم أطل التفكير. وفي اليوم التالي أبلغتهم بالموافقة. وبعد أسبوع كنا مخطوبين.

ومع الأيام عرفتها. لم تأتِ لتنتشلني من حطامي. جاءت لتبني معي. اكتشفت أنها تقرأ ما أقرأ، وتكره ما أكره، وتصمت حيث أصمت. صرت أنتظر حديثها. لا لأجل كلمات الغزل، بل لأجل: "هل تناولت طعامك؟" و "يومك كيف كان؟"
ليلة العقد، رأيتها توقع. لم ترتجف يدها. رفعت بصرها إليّ لثانية. لم تكن نظرة عشق كما في الروايات. كانت نظرة عهد. تقول: "ها أنا. وسأبقى". ففهمت.

حينها أدركت أن الحب لا يأتي دوماً كالبرق. أحياناً يأتي كقرار. كاختيار هادئ. كيدٍ مُدّت فأمسكتها لأنك تعبت من السير وحدك.

تزوجنا. لم نبدأ بعشق عظيم. بدأنا بمودة ورحمة ونية صادقة. ومع الوقت نما ما بيننا. صار عشرة، وصار سكناً، وصار بيتاً نعود إليه آخر النهار فنقول: "الحمد لله".
هكذا كانت خاتمتي. لم أهزم الماضي، بل تجاوزته.
وفي الطريق وجدت شريكة لم أخطط لها، ونظرة لم أبحث عنها، وبيتاً لم أحلم به.
لعل هذه هي النظرة الأولى حقاً: أن ترى في وجه أحدهم الغد الذي تستطيع أن تحياه.
الفصل الثلاثون: بيت جديد*
لم يكن البيت كبيراً. كان يكفي لشخصين يبدآن من الصفر.
كان الشارع هادئاً. ضيقاً. وفي ناصيته شجرة وحيدة.
صعدنا الدرج. ثلاث طبقات. كان المفتاح ثقيلاً في يدي. أدرته فسمعت صوت التكة.

كانت الرائحة الأولى رائحة البلاط النظيف والدهان الأبيض. تدخل الشمس من نافذة الصالة فترسم مربعاً من النور على الأرض. لا أثاث كثير. سرير، وطاولة، وكرسيان.

في اليوم الأول جلسنا على الأرض وتناولنا الطعام من علب كرتون. لم نتحدث كثيراً. كنا نصغي إلى صدى خطواتنا في البيت الفارغ.

هي رتبت المطبخ. فتحت كل درج وأغلقته. رصت الأكواب حسب الحجم. وأنا علقت الستارة. سقطت مني مرتين. فضحكت وقالت: "سأمسكها أنا". ومنذ ذلك اليوم صار هذا دورها في البيت: هي تمسك، وأنا أثبت.

بالليل كان البيت بارداً. أحضرنا بطانيتين. جلسنا في الشرفة. كان الشارع نائماً. لم نسمع إلا صوت قطة تمشي فوق السطح المقابل.
سألتها: *"أتشعرين بالبرد؟"*
فهزّت رأسها. فبسطت لها طرف البطانية فتغطت به.
لم نحتج إلى كلام أكثر.

تعلمنا البيت بالتجربة. عرفنا أن الصنبور في الحمام يقطر إن لم نغلقه بإحكام. وعرفنا أن الكهرباء تضعف عند الثامنة. وعرفنا أن صوت الأذان يصلنا واضحاً من مسجد بعيد.

وفي ليلة ممطرة تسرب الماء من تحت الباب. جففناه معاً بمناشف قديمة. كنا نضحك ونحن ننقل الماء من مكان إلى آخر. وفي النهاية جلسنا متعبين. قالت: "أول ذكرى في هذا البيت: الغرق".
فقلت: "إذن سنسميه بيت الناجين من الغرق".
ابتسمت. وكانت تلك أول ابتسامة كاملة أراها منها.
لم يكتمل البيت بعد.
ولكننا بدأنا نسكنه. شيئاً فشيئاً.
الفصل الواحد والثلاثون: سنة أولى*
السنة الأولى ليست شهر عسل. هي اختبار هادئ.

مرت الشهور ببطء.

كان يومي يبدأ بصوت الغلاية. كانت تستيقظ قبلي وتعد الماء. أخرج فأجد كوبين جاهزين. واحد لها، وآخر لي. بلا كلام. نجلس ونشرب فقط.

في العمل كنت أفكر: "هل تناولت طعامها؟" فأرسل لها رسالة قصيرة. ترد: "نعم". وينتهي الأمر. لكني كنت أطمئن.

عدنا نتعلم بعضنا. عرفت أنها لا تحب النوم والضوء مضاء. وعرفت أني أتحدث وأنا نائم. وعلمت أنها تغسل يديها ثلاث مرات بعد تقطيع البصل. وعلمت أني أنسى مفاتيحي دائماً، فصارت تعلقها عند الباب.

لم نختلف كثيراً. اختلفنا مرة على التلفاز. تريد مسلسلاً، وأريد الأخبار. في النهاية أغلقناه وخرجنا للمشي. كان هذا حلنا: أن نخرج من البيت حين يضيق بنا.

وفي الشتاء مرضت. ارتفعت حرارتها وسعلت. جلست إلى جانبها. أحضرت لها الليمون. غطيتها.

وفي منتصف الليل سمعتها تقول بصوت ضعيف: "لا تذهب". فلم أذهب. بقيت حتى الصباح.

وفي الربيع اشترينا أول نبتة. وضعناها في الشرفة. كنا نسقيها كل يوم. وكبرت.

ذات مساء سألتها السؤال الذي كنت أخشاه: "هل أنتِ سعيدة؟"
طال صمتها. ثم قالت: "لا أعرف معنى السعادة الكبيرة. لكني مرتاحة. والراحة تكفي".

حينها فهمت.
الحب ليس ناراً. الحب دفء.
يأتي كل يوم في كوب شاي، وفي سؤال: "لماذا تأخرت؟"، وفي أن تجد من يطفئ النور خلفك.
انتهت السنة الأولى.
لم نحقق شيئاً عظيماً.
لكننا بنينا عادة: أن نعود إلى البيت نفسه.
وهذا وحده كان كافياً.

الفصل الثاني والثلاثون: اعتراف بطيء*

لم نقل "أحبك". قلناها بأشياء أخرى أولاً.
بعد السنة الأولى، صار البيت له رائحة. رائحة قهوتها في الصباح، وورقي في الليل.
صرنا نعرف عادات بعضنا دون أن نتكلم.

كنت أكتب. وكانت تجلس في الركن المقابل تقرأ. بيننا صمت طويل. لكنه لم يكن صمت غرباء.
كان صمت من اطمأن لوجود الآخر.

في أحد الأيام تأخرت في العمل. عدت في العاشرة. وجدت النور مضاءً في المطبخ. وجدتها تنتظر. لم تسأل "أين كنت". فقط قالت: "سخنت العشاء".
جلست. كان الطعام بارداً قليلاً، لكنه كان دافئاً لأنها انتظرتني.

في ليلة أخرى، كنت متعباً. رميت رأسي على الطاولة. لم تكلمني. أحضرت منشفة مبللة بماء بارد ووضعتها على رقبتي. ثم جلست بجانبي. لم تلمس يدي. لكن كتفها كان قريباً من كتفي. وبقينا هكذا حتى نمت.

بدأت أنتبه للتفاصيل الصغيرة.
كيف تضع الكوب الذي أحبه في مكانه.
كيف تترك النافذة مفتوحة قليلاً لأني أحب الهواء.
كيف تقول "احترس" حين أمشي في الشارع المبلل، حتى لو لم أكن سأسقط.

ولم تقل شيئاً. ولم أقل شيئاً.
لكن في داخلي كان هناك سؤال يكبر: متى تحول الاحترام إلى مودة؟ ومتى تحولت المودة إلى حاجة؟

في يوم ممطر، انقطعت الكهرباء مرة أخرى. جلسنا على الأرض. شمعة واحدة بيننا.
قالت فجأة: "أتعرف؟ كنت خائفة في البداية".
سألتها: "من ماذا؟"
قالت: "من أن أكون مجرد خيار. من أن تكون قد تزوجتني لأنك تعبت".
صمت. ثم قلت: "وأنا كنت خائفاً من أن أظلمك. من أن لا أستطيع أن أحبك كما تستحقين".

نظرت إليّ. عيناها لم تهربا هذه المرة.
قلت ببطء: "لا أعرف إن كان هذا حباً بالمعنى الذي في الكتب. لكني أعرف أني حين أتعب، أول ما أفكر فيه هو العودة إلى هنا. إلى هذا البيت. إليكِ".

هزت رأسها. ابتسمت ابتسامة صغيرة.
وقالت: "وأنا حين أستيقظ، أول ما أبحث عنه هو صوتك في المطبخ".

لم نتعانق. لم نبكِ.
فقط شربنا الشاي. وكان طعمه مختلفاً تلك الليلة.
لم يكن اعترافاً كبيراً.
كان اعترافاً بطيئاً.
اعتراف أننا اخترنا بعضنا كل يوم، حتى صار الاختيار حبا ،احتراما ،صدقا .

الفصل الرابع والثلاثون: قَسَمُ الكاتب*

كان البيت هادئاً.
والمصباح الأصفر يرمش مرةً كل دقيقة.
وعلى الطاولة كوبان: أحدهما فيه شايٌ قد برد، والآخر لم يُمس.

نظر إليها، وتأمل وجهها...
لا مساحيق. لا تبرير. لا انتظار.
وجه امرأةٍ اختارت أن تبقى في بيتٍ تعرف جدرانه اسمهما من كثرة صمتهما.

والجيوبُ فارغة.
والعلبةُ الحديديةُ فوق الرف فيها بضع دراهم وورقةٌ ممزقة.

فأخذ يدها. كانت دافئةً رغم كل شيء.
وقال:

"أنصتي إليّ. ولآخر مرةٍ أقطعُ لكِ عهداً.

إني لا أملك لكِ اليوم بيتاً أوسع، ولا ذهباً، ولا وعوداً منمقة.
إنما أملك أمرين: هذا القلم، وهذا العناد.

أقسم لكِ بالذي جمعنا في يومٍ لم نكن نخط له:

لن أدع هذا الفقر يمسّ كرامتكِ.
ولن أدع هذا الصمت يأكل عمركِ.
ولن أتركِ تنامين وفي قلبكِ خوفٌ من الغد.

لا أعدكِ بالغنى.
ولكني أعدكِ بأني لن أستريح حتى يصبح تعبي رفاهيتكِ،
وحتى يصبح سهري أمانكِ،
وحتى يتحول كل حرفٍ أخطه... إلى لبنةٍ في بيتٍ نكبر فيه معاً.

إني أعلم أنكِ لم تتزوجيني من أجل المال.
لقد تزوجتِني لأنكِ رأيتِ رجلاً محطماً، فمنحتِهِ فرصةً ليرمم نفسه.
وأنا لن أخون هذه النظرة أبداً.
فخذي مني هذا الميثاق:
كل درهمٍ يدخل هذا البيت سيكون له اسمان.
اسمكِ أولاً، واسمي ثانياً.
وكل انتصارٍ صغيرٍ قادم سيبدأ بكلمة: _بفضلها_.

اليوم نبدأ بسوارٍ من نحاس.
وغداً، بإذن الله، سأضع على معصمكِ ما يليق بصبركِ.
ليس لأني صرتُ غنياً، بل لأنكِ احتملتِني وأنا لا شيء."

فسكتَ.
فلم تبكِ، ولم تصفق.
إنما ضغطت على يده وقالت: "اكتب".

ومنذ تلك الليلة صار المكتب محراباً.
وصار الليل شريكاً.
وصار كل رفضٍ وكل بابٍ يُغلق في وجهه... وقوداً.

لم يثرَ سريعاً.
ولكن البيت امتلأ بشيءٍ أعظم من المال: الكرامة.

وفي ليلةٍ من الليالي، فتحت العلبة الحديدية.
وأخرجت سواراً من نحاسٍ بسيطٍ ولبسته.
وقالت: "هذا أول الغيث.
وعندما يأتي الذهب الحق، سنضعه فوقه.
حتى لا ننسى أبداً من أين بدأنا... وكيف انتصرنا."⊏
هذا ليس وعد عاشقٍ في رواية.
هذا عهد رجلٍ لامرأةٍ حملته وهو واقع.
بدأ من *جيوبٍ فارغة*...
ومضى إلى غايةٍ واحدة:

أن يردّ لها الجميل، ولو احتاج الأمر عمرا

الفصل الخامس والثلاثون: ليلة مختلفة

مرت شهورٌ منذ ذلك القَسَم، ولم يعد البيت كما كان من قبل. اختفى ذلك الصمت الثقيل الذي كان يخيّم على الجدران، وغابت قائمة الحسابات التي كانت تؤرقهما كل ليلة. حلّ محلها هدوءٌ جديد، فيه شيء من الرضا وشيء من الأمل.

في تلك الليلة عاد إلى البيت متأخراً، وفي يده كيس صغير. وجدها في انتظاره، قد أعدّت له عشاءً بسيطاً وجلست تقرأ. نظر إليها فوجد في وجهها تعباً، لكنه تعبٌ مطمئن، تعب امرأةٍ أيقنت أخيراً أن الأيام القادمة لن تكون كسابقتها.

جلس إلى جوارها بصمت، وأخذ يدها بين يديه. رفعها إلى جبينه ثم قال بصوتٍ منخفض: "لقد تعبتِ معي كثيراً، وأنا أُقسم أن هذا التعب لن يضيع". فخجلت وابتسمت وقالت: "وأنت ألم تملّ؟" فأجابها ضاحكاً: "مللتُ من كل شيء إلا منكِ ".

لم يكن بينهما ذلك المساء كلامٌ كثير، ولكن كان بينهما سكينة. أكلا معاً، وتحدثا عن أشياء صغيرة، وضحكا على أشياء أبسط. ولأول مرةٍ منذ زواجهما ناما وهما لا يحملان همّ الغد.

ومنذ تلك الليلة تبدّل إيقاع البيت. صار الحديث يدور عن أشياء جديدة: عن اسمٍ لطفلٍ قادم، وعن غرفةٍ صغيرةٍ يمكن أن تتحول إلى غرفةٍ للأطفال، وعن مستقبلٍ لم يعودا يخافانه.
الزواج ليس وعوداً تُلقى في لحظة غضب، ولا صبراً على الفقر وحده. الزواج سكنٌ ومودة، أن تجد من تشكو إليه فيتعب لتعبك، ومن تفرح معه فتكتمل فرحتك. ومن هذا السكن تبدأ البيوت، ومن هذا الحب تبدأ العائلات.
الفصل السادس والثلاثون: البشارة*

مضت أسابيع قليلة على ذلك العهد الذي قطعاه على نفسيهما.
والبيت الذي كان يلفه الصمت، صار له دبيب. صار فيه صوت إبريق الصباح، ووشوشة الماء، وضحكة خافتة تنبعث من المطبخ.

أما هي فقد أضناها التعب. كثر نومها، وثقلت خطواتها، وإذا مرت رائحة القهوة وضعت يدها على فمها.
وهو كان يرقبها بصمت، يخشى أن يفرح فيخيب، ويخشى أن يسأل فتتهرب.

وفي ليلة من أواخر الشهر، عادت من عند الطبيبة ووجهها شاحب، ولكن عينيها تبرقان ببريق غريب.
جلس قبالها على الأرض كما كان يفعل أيام العسر.
فأخرجت من جيبها ورقة مطوية، وناولته إياها. ارتجفت يده وهو يفتحها.

كان فيها سطر واحد: *"مبارك لكما... إنكما ستصبحان اثنين"*

فسكت كل شيء.
سكتت الجدران، وسكت الفقر، وسكتت كل السنين التي مضت.
ونهض فاحتضنها، وهمس في شعرها بصوت متهدج: *"يا سكني... الحمد لله الذي لم يُضع صبرنا"*

ولم يكن بكاؤه يومها بكاء قهر، بل كان بكاء رجل أدرك أن كل العناء، وكل الدَين، وكل الليالي التي بات فيها ينتظر النحاس الذي لم يأتِ... كانت تمهيداً لهذه اللحظة.

وفي الصباح باع ما تبقى من خوفه.
واشترى مهداً صغيراً، وقماشاً أبيض، وبدأ يختار اسماً للمنتظر.

ومن ذلك اليوم صار للبيت موعد مع الفرح.
موعد مع رزق جديد، ومع خوف أجمل، ومع يقين بأن الشدة التي مرت كانت تستحق كل هذا العوض

الفصل الأخير: الكاتب المشهور*

مضت اثنتا عشرة سنة.
والبيت الذي بدأ بسكينة وورقة بشارة، صار عامراً بالضحك.

رزقهم الله بثلاثة.
الكبرى: "سنا" تشبه أمها في هدوئها، وتحفظ قصائده قبل أن تُطبع.
الأوسط: "تميم" عنيد كأبيه، يسأل عن كل كلمة في كتبه: "لماذا كتبت هكذا يا أبي؟"
الصغرى: "لُجين" جاءت بعد طول انتظار، وكانت ضحكتها هي التي توقظه من الكتابة في الفجر.

هو لم يعد الرجل الذي يعد الدنانير.
صار اسمه على أغلفة الكتب، وتُرجمت حروفه إلى لغات لا يعرفها، وتُدعى الجامعات ليلقي محاضرات عن "الأدب الذي ينبت من الجوع".
ولكنه كلما عاد من سفر، رمى الجوائز على الطاولة، وبحث عنهم في أركان البيت.

أما هي... فكانت الوزيرة الخفية لمملكته.
هي من ترتب مواعيده، وترفض المقابلات التي تسرق وقت العائلة، وتصحح مسوداته بقلم أحمر.
الناشرون يخشون رأيها أكثر من رأي النقاد.

وكان لهم طقس لا يبدلونه أبداً:
كل ليلة جمعة، بعد أن ينام الصغار، يجلسان على الأرض في نفس الركن القديم. كوبا شاي، ودفتر مفتوح.
تقول له: "اكتب عن اليوم".
فيكتب: "اليوم مللتُ من التصفيق، إلا من تصفيق أطفالي حين أعود. ومللتُ من المجد، إلا منكِ يا سكني".

وفي حفل التكريم الأكبر، وقف أمام ألف شخص.
سألوه: "ما سر نجاحك؟"
فأشار إلى الصف الأول حيث كانت تجلس وبجانبها الثلاثة.
وقال: *"سري أنني حين خسرت الدنيا، لم أخسرها. وحين ربحت الدنيا، لم أنسَ من بقيت معي حين كانت خسارة."*

رجعوا إلى البيت متأخرين.
نام الأطفال، وبقي هو وهي.
فتح النافذة وقال: "أتذكرين حين أقسمت أن آتيكِ بنحاس؟"
قالت وهي تتكئ على كتفه: "جئتنا ببيت، وبأسماء نناديها، وبعمرٍ لا نبدله بكل كتب الدنيا".

وهكذا خُتمت الحكاية.
لا بالشهرة، ولا بالمال.
خُتمت بعائلةٍ تجلس على الأرض، وبقصةٍ بدأت بورقة بشارة، وانتهت بثلاثة أطفال ينادونه كل صباح: *"يا أبي، احكِ لنا كيف بدأتم"*.

مِنْ عُمْقِ الظِّلَالِ، يَنْهَضُ وَحِيدًا لِيُوَاجِهَ العالَمَ.
رِحْلَةُ نِضَالٍ مُؤَلِمَةٍ ضِدَّ الجَمِيعِ.
هَلْ يَنْتَصِرُ القَلْبُ أَمْ تَنْتَصِرُ الحَقِيقَةُ؟